

❖ المبحث الأول: ردود الفعل الخارجية.

أ-رد فعل بريطانيا:

لم تكن هذه الحملة ذات تأثير خفيف على انجلترا لأنها كانت تسعى منذ القديم للريادة على مصر فكان الصراع بين فرنسا و انجلترا على هذه المنطقة في فترة زمنية ليست بقصيرة حيث يقول المؤرخ بولدوين في تقريره عن مصر نشر في لندن 1801: "إن بريطانيا أدركت خطورة و أهمية مصر من النواحي السياسية و العسكرية و التجارية، و لهذا كانت تتابع دسائس فرنسا و خططها من أجل هذا الغزو لأنهم فهموا أن سيطرة فرنسا على مصر معناها سيطرتها على التجارة العالمية"⁽¹⁾، و هذا ما يبرر سعي انجلترا الحثيث من أجل القضاء على أمر هذه الحملة، و قد كانت البداية ب:

معركة أبو قير البحرية 1 أوت 1798: بعد شهر من وصول الحملة الفرنسية إلى مصر⁽²⁾، و منذ خروجها من ميناء طولون و الأسطول الإنجليزي يبحث عنها في كامل البحر المتوسط⁽³⁾، حيث أوكل الإنجليز إلى الأميرال نيلسون لتتقي أثر الحملة و القضاء عليها قبل دخولها إلى مصر، و بينما توقف في جزيرة صقلية للتزود بالمؤن تمكن الأسطول الفرنسي من مباغتتهم و الدخول إلى الإسكندرية⁽⁴⁾.

لكن سرعان ما أدرك الإنجليز وجهة الفرنسيين، و لما علم نابليون بذلك سارع إلى وضع احتياطاته اللازمة فأنزل جيوشه قرب الدخيلة (في أقرب نقطة من الإسكندرية على البحر) ليتخلص من الجنود⁽⁵⁾.

¹ - محمد علي العتاب، المرجع السابق، ص 127.

² - سيار الجميل، المرجع السابق، ص 306.

³ - جلال يحيى، مصر الحديثة 1517-1805، دار المعارف، الإسكندرية، [د.ت.]، ص 328.

⁴ - مسعود الخوند، المرجع السابق، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج18، الشركة العالمية للموسوعات، بيروت، ص 218.

⁵ - هنري لورنس، الحملة الفرنسية في مصر (بونابرت و الإسلام)، ترجمة بشير السباعي، دار لينا، القاهرة، 1995، ص96.

واتجه بعد ذلك صوب الإسكندرية، و بعد دخول القاهرة (27 جويلية 1798) (1) اطمأن للوضع و أخذ يفكر في الاستقرار، و لكن الأسطول الإنجليزي فاجئهم بهجوم مباغت (2) لم يتوقعه الفرنسيون، و في 1 أوت 1798 دخل هذا الأسطول خليج أبي قير (3) في الوقت الذي غادر فيه نابليون الإسكندرية متجها إلى القاهرة، حيث أمر نائب الأدميرال فرنسوا بول أن يفرغ كل الحمولة من المواد اللازمة للجنود ثم يبحر بسرعة، و لكن تأخره جعله يرسوا بأسطوله في أبي قير، و كان الأسطول الإنجليزي تعداده 15 سفينة حربية منها 14بارجة تحمل 1050 مدفعاً وعليه 8240 بحارا، أما الأسطول الفرنسي تألف من 17 سفينة حربية منها 13 بارجة و4 فرقاطات وعليه 8400 بحارًا، بدأ الإنجليز هجومهم على الفرنسيين الذين وجدوا صعوبة في مواجهتهم بسبب ضخامة سفنهم إضافة إلى تشكيلهم خط مقوس في البحر سهل على الإنجليز اختراقه ففقد الفرنسيون مقدمة الأسطول و قائدها بروي (بعد تعرض سفينته أوريان إلى القصف مات فيها متأثرًا بجروح بليغة) (4) .

هذا ما دفع المقدمة إلى الاستسلام أما المؤخرة التي كانت تحت إمرة قلينيق فقد قرر العودة إلى أوروبا تاركًا السفن الغير القادرة على الإبحار في مياه المتوسط و التي رفضت الاستسلام (5)، واستمرت المعركة حتى تمكن الإنجليز من القضاء على الأسطول الفرنسي كاملا باستثناء 4 بوارج تمكنت من الفرار إلى جزيرة مالطة، و استولوا على 6 سفن ضموها إلى أسطولهم، و انقطع على إثر هذه المعركة التواصل بين فرنسا و الحملة في مصر (6).

1- محمد عتريس، المرجع السابق، ص 398.

2- هنري لورانس، المصدر السابق، ص 178.

3- لوتسكي، المرجع السابق، ص 50.

4- جلال يحيى، المرجع السابق، ص ص 324-370.

5- هنري لورانس، المصدر السابق، ص 179.

6- جلال يحيى، المرجع السابق، ص 84.

كما أن هذه المعركة قضت على أحلام نابليون في استخدام البحر لمواصله القضاء على المراكز البريطانية الاستراتيجية و خاصة في الهند، و بالتالي أصبح الجنود يعتمدون على مصر في تغطية احتياجاتهم (ذخيرة و غذاء) (1). هذا فيما يخص رد فعل إنجلترا باعتبارها الأكثر انزعاجًا من هذه الحملة و هذا لا يعني بأن باقي الدول الأوروبية كانت راضية بل العكس فقد كانت ترفض فكرة استئثار بلد أوروبي واحد لمثل هذا الإقليم.

ب- رد فعل الدولة العثمانية:

كنا قد أشرنا سابقًا أن مصر كانت إيالة عثمانية خاضعة لسلطة الباب العالي في إسطنبول، و المعتدى عليها كأنه اعتدى على الدولة العثمانية ووصول الحملة كان أمرًا مفاجئًا لها، و بالتالي كانت ردة فعلهم قوية، و كان نابليون متوقعًا لهذا الرد (2)، و لهذا كان يتماطل في حقيقة هذه الحملة موهماً بأنها إجراء لتأديب المماليك و ليس السيطرة على مصر، و بالتالي اتجهت الدولة العثمانية إلى التحالف مع عدوة فرنسا اللدود بريطانيا، ففي 22 ديسمبر 1798 تم عقد التحالف (3) بعد إدراكهم هدف فرنسا بعدما ظهرت نوايا نابليون في موقعة الأهرام، و هنا أعد الباب العالي العدة من أجل طرد الغزاة، و قام بغمر نيلسون بالهدايا (ساعة رملية و قطعة من الألماس أخذت من عمامته و صندوق مرصع بالجواهر (4)، و أذاعا للجهد حيث صدرت فرمانات تحث الشعب لصد هذه الحملة و عدم السماح لها بالقضاء على الإسلام (5).

1- سيار الجميل، المرجع السابق، ص 306.

2- أنتوني ننتج، العرب منذ العصر الجاهلي حتى عصر جمال عبد الناصر، ترجمة حلمي سلامة، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2004، ص 309.

3- سيار الجميل، المرجع السابق، ص 306.

4- أنتوني ننتج، المرجع السابق، ص 309.

5- عبد العزيز محمد الشناوي، صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، دار الكتب، مصر، 1971، ص 75.

و هذا ما فعله نيلسون في أبي قير كما أسلفنا⁽¹⁾، فكانت هذه المعركة التي أزلت مخاوف الباب العالي و فتحت له الطريق⁽²⁾.

ففي سبتمبر 1798 تسلل رسل من الشام إلى القاهرة(الجامع الأزهر) دعا فيه المصريين للجهاد⁽³⁾ و استرداد أقاليمها، و هذا ما أعطى الحافز للشعب المصري الذي لم يتوقف عن النضال ضد الفرنسيين⁽⁴⁾، و في 15 جانفي 1799 تم عقد تحالف آخر بين العثمانيين و البريطانيين لتتضم إليهم روسيا و كانا يهدفان إلى إيجاد مصالح استراتيجية لهم في الدولة العثمانية و مياها الإقليمية⁽⁵⁾، فأرسل السلطان جيشاً إلى مصر للقضاء على الحملة(الأول يصل يصل بحرًا و الثاني برًا على أن تكون نقطة الانطلاق في مصر)⁽⁶⁾، و بعد معرفة نابليون بأمر هذا التحالف قرر المبادرة بغزو الشام ليضع حدًا للجيش التركي حيث أحرز الفرنسيون انتصارًا في غزة و يافا ثم حصار عكا، و لكنه فشل في الاستلاء عليهما رغم إمداده بالمعونة من طرف الأمير الشهابي⁽⁷⁾ أما بالنسبة للجيش العثماني فالأول(البري) تعثر في الشام فتمكن نابليون من القضاء عليه أما الثاني(البحري) فسقط في البحر فهزمه نابليون في أبي قير⁽⁸⁾ بحيث كان عدد هذه القوة 10.000 جندي نجحوا في المرحلة الأولى و هذا تحت حماية الأسطول الإنجليزي بقيادة مصطفى باشا، و لكن نظرًا لبقاء هذه القوة مدة طويلة في موقعها أعطى فرصة لنابليون بتجهيز نفسه و قام بسحب جنوده⁽⁹⁾.

1- أنتوني ننتج، المرجع السابق، ص 304.

2- لوتسكي، المرجع السابق، ص 51.

3- عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ص 69.

4- لوتسكي، المرجع السابق، ص 51.

5- سيار الجميل، المرجع السابق، ص 306.

6- حسين مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ط2، لجنة الجامعيين لنشر العلم، القاهرة، [دب]، ص 84.

7- زاهية قدورة، المرجع السابق، ص 336.

8- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 60.

9- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص 101.

من الصعيد تاريخاً مراد بك يمد نفوذه، ووضع أولوية القضاء على العثمانيين و حاصرهم في هذا المكان، ولم يتمكن الإنجليز تقديم المساعدة بسبب ضخامة مراكبهم، و انتهت المعركة بهزيمة العثمانيين و أسر عدد منهم(مصطفى باشا)⁽¹⁾، فوُجعت هنالك مجازر وحشية(مجزرة يافا)حيث استسلم حوالي ثلاثة آلاف جندي من الجيش العثماني فقتل بعضهم و البعض الآخر فضل رمي نفسه في البحر حتى أصبح لونه أحمرًا على حد وصف أحد الذين شاركوا في الحملة⁽²⁾، و كما سبقت الإشارة إلى أن حملة نابليون على الشام قد فشلت بسبب ما ذكرناه آنفًا إضافة إلى انتشار الطاعون، و قدوم فصل الشتاء أجبر نابليون على العدول عن توغله و التوقف على أسوار عكا و العودة إلى مصر. و كان من نتائج هذه المعركة اقتناع مراد بك بأن انتصار العثمانيين على الفرنسيين أمر بعيد المنال، و هذا أدى إلى قبوله المفاوضات، و حصل نابليون من العثمانيين و الإنجليز معلومات عن الأوضاع العامة في أوروبا و فرنسا⁽³⁾.

¹- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص 102.

²- زاهية قدورة، المرجع السابق، ص 336.

³- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص 102.

❖ المبحث الثاني: ردود الفعل الداخلية.

أ- ثورة القاهرة الأولى 21 أكتوبر 1798:

لقد دافع المصريون على أرضهم منذ اللحظة الأولى فقاموا بعدة انتفاضات كان من أسبابها رفض التواجد الفرنسي الذي كان يمثل بالنسبة للمصريين حكماً للعدو الكافر الذي غزا دار الإسلام، خاصة و أنهم كانوا يعرفون⁽¹⁾ وجه فرنسا القبيح لذلك فهم كانوا يرون في هذه الحملة أنها جاءت تكملة للحروب الصليبية، و لهذا اتخذت المقاومة طابعاً دينياً⁽²⁾، و رغم محاولات نابليون الحثيثة إلى إثبات أنه مسلم و هذا بارتدائه الملابس الشرقية و يتردد إلى المسجد أيام الجمعة و يشترك في الشعائر الدينية⁽³⁾، لكن هذا لا ينفي الأعمال الشنيعة التي قام بها الفرنسيون حيث أن نابليون اختلف مع أعضاء الديوان بعد أن أخبرهم بأن تجار القاهرة و الإسكندرية و رشيد مطالبين بمبالغ مالية هائلة⁽⁴⁾، بالإضافة إلى مصادرة الممتلكات لدرجة أن الفرنسيين لم يتركوا نساء المماليك يدخلن بيوتهن إلا بدفع ضريبة لذلك، كما هدمت الكثير من المنازل و إخراج السكان منها⁽⁵⁾.

بالإضافة إلى اختلاف اللغة و الثقافة وحتى اللباس كان له أثر على نفوس العامة (ارتبطت القبة بالحروب الصليبية)، كما انتشرت ظاهرة تحرر النساء

1 - إسماعيل أحمد ياغي و محمود شاكر، المرجع السابق، ص 19.

2- مسعود الخوند، المرجع السابق، ج18، ص 221.

3- لوتسكي، المرجع السابق، ص52.

4- محمد فيصل عبد المنعم، مصر تحت السلاح، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، [دبت]، ص 139.

5- عبد الرحمن زكي، القاهرة تاريخها و أثارها (1825-1969)، دار الطباعة الحديثة، مصر، 1966، ص 256.

بعيشهن حياة الترف و يشاركن الرجال في الاحتفالات و الرقص و المشي بالملابس القصيرة في الشوارع و الخروج في الأوقات المتأخرة⁽¹⁾. و انتشار الخمرات و تحويل المقاهي إلى ملاهي ليلية فيها مختلف أنواع التسلية للجنود و نظر المصريون إلى هذه الظواهر أن هدفها نشر الرذيلة و الفساد وسط الشباب المصري حتى أن أحد الأساتذة أطلق على مصر منذ دخول الإفرنج "القاهرة الخليعة"⁽²⁾، أضف إلى أن أعمال السلب و النهب كانت فوق طاقة هؤلاء السكان و هذا ما تؤكدته الرسائل التي بعثها نابليون إلى الجنرال زايوشك و مينو في رشيد يأمرهم باستعمال القوة لإخضاع هذا الشعب⁽³⁾، و قد قام أحد الفرنسيين بتعيين يوناني في منصب كتحدا(وكيل محافظة القاهرة) حيث عرف هذا الرجل بقسوته على المصريين و كان يدهم البيوت في الليل بالإضافة إلى استيلاء الأقباط و النصارى على إيراد الأوقاف الخيرية الإسلامية⁽⁴⁾، و كذلك أعدم السيد محمد كريم (حاكم الإسكندرية) و طافوا برأسه في شوارع القاهرة (6 سبتمبر 1798)، و كان انهزام الفرنسيين في أبي قير سبب آخر لزيادة حماس هذا الشعب و تأكده من إمكانية قهر الجيش الفرنسي⁽⁵⁾.

كما تم تكذيب ادعاء نابليون بأنه صديق الباب العالي و هذا بمنشور السلطان العثماني سليم الثالث بالدعوة للجهاد ضد الكافرين و إثارة الحمية الدينية بذكر الآيات القرآنية، و يقول الأستاذ محمد شفيق أنه صدرت عن السلطان عدة فرمانات قرأت في المساجد تدعوا إلى المقاومة، إلى جانب تسرب أخبار أن

1- محمد فيصل عبد المنعم، المرجع السابق، ص 139.

2- عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ص 66-85.

3- محمد فيصل، المرجع السابق، ص 139.

4- عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ص 86-91.

5- محمد محمود السروجي، دراسات في تاريخ مصر و السودان الحديث و المعاصر، [د.ن.]، القاهرة، 1998، ص 32.

أحمد باشا الجزار يزحف على رأس قوات جرارة لطرد الفرنسيين، و يمكن اعتبار أن كل هذه العوامل كانت دافعاً في انتفاضة الشعب المصري⁽¹⁾.

اجتمع عدد من سكان القاهرة عند منزل الشيخ البكري، و اشتكوا إليه الأوضاع التي ألوا إليها بسبب الضرائب التي كانوا يدفعونها و بالتالي عطلت أشغالهم⁽²⁾ حتى يرافقهم إلى نابليون من أجل إلغائها، و سار معهم (21 أكتوبر 1798) و في منتصف الطريق أدرك بأنهم متجهين للقتال، و بينما قرر العودة انقضوا عليه ضرباً بالعصي و الحجارة، و ما هي إلا ساعات حتى اكتظت الشوارع بالثائرين حاملي الأسلحة⁽³⁾، فحصنوا المنطقة و استعداداً لملاقات العدو و هذا بعد اجتماعهم في جامع الأزهر الذي غدي بؤرة للثورة و الجهاد فاشتدت المعارضة خاصة في الدلتا، فهجموا على الدوريات و العسكريين و قتلوا الضباط، فقام نابليون بحرق القرى المتمردة لتكون شرارة لثورة القاهرة⁽⁴⁾، فبدأ الشعب بإقامة المتاريس في الشوارع استعداداً لملاقات الفرنسيين، و ما هي إلا ساعات حتى انتشرت الثورة⁽⁵⁾.

لعب مشايخ الأزهر دوراً بارزاً في هذه الثورة فخرجوا إلى الشوارع للدعوة للجهاد (كان صوت الأذان مختلطاً بدعوى الجهاد)⁽⁶⁾ مما جعل الجنرال ديبوي (حاكم القاهرة العسكري) يرسل جنده لتهدئة الوضع، لكن الثائرين انهالوا على الجند رمياً بالرصاص و الحجارة فأصيب الكثير منهم و قتل الجنرال ديبوي ليخلفه الجنرال بون⁽⁷⁾، بعد هذا أدرك نابليون خطورة الموقف ورأى أن

1- عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ص 69.

2- جورج يانج، تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، طر، تعريب علي أحمد شكري، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996، ص 30.

3- محمد محمود السروجي، المرجع السابق، ص 23.

4- لوتسكي، المرجع السابق، ص 51.

5- محمد محمود السروجي، المرجع السابق، ص 23.

6- عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ص 111.

7- عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص ص 255-256.

يشرف بنفسه على إخمادها و لكنه لم يتمكن من الدخول إلى القاهرة، و فوض الجنرال بون و أعطاه كامل الصلاحيات من أجل السيطرة على الوضع⁽¹⁾. و تجهيز الفريقان للقتال الذي انتهى بغلبة الفرنسيين بعدما خسروا ديبوي و سلكوسكي⁽²⁾، فكان ردهم قاسي بالهجوم على الأزهر بأمر من نابليون أن يبيد كل من في الجامع فكان يوم 23 أكتوبر 1798 ثورة القاهريين حيث قتل المئات منهم⁽³⁾، و قد وصف المؤرخ الجبرتي المعاصر لهذه الفترة (عجائب الآثار في التراجم و الأخبار) كيفية دخول هؤلاء إلى المسجد بطريقة يندى لها الجبين، كما وصف العديد من الفرنسيين قصف الأزهر مثل دوتيري و ريبو حيث قالوا: "أوشك الأزهر على أن يتداعى من شدة الضرب، فيدفن تحت الأنقاض"⁽⁴⁾، كما شددوا الخناق على القاهرة و حاصروها من كل الجهات و منعوا القرى المجاورة لها من القدوم و تقديم المساعدة للثوار، و تمكنوا في النهاية من إخمادها⁽⁵⁾.

و كان من نتائج هذه الانتفاضة:

تعطيل الديوان الوطني و إعدام المشايخ الستة و مصادرة أملاكهم، ففقد المصريون الثقة في نابليون و رفضوا التعاون معه وانتشرت الاضطرابات⁽⁶⁾ فعطل مجلس ديوان القاهرة مدة شهرين، و في جانب آخر انتهج سياسة زرع الشقاق الطائفي (المسلمين و الأقباط)⁽⁷⁾، أما بخصوص القتلى فقد بلغ نحو

1- محمد محمود السروجي، المرجع السابق، ص 23.

2- محمد محمود السروجي، المرجع السابق، ص ص 23-24.

3- زينب عبد العزيز، مائتا عام على حملة المنافيين الفرنسيين، كمبيوتر ستار، [د.م.]، 1998، ص 36.

4- هنري لورانس، المصدر السابق، ص 41.

5- محمد فيصل، المرجع السابق، ص 144.

6- جوزيف ماري مواريه، مذكرات ضابط من الحملة الفرنسية على مصر، ترجمة كاميليا صبحي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص ص 77-78.

7- سيار الجميل، المرجع السابق، ص 307.

أربعة آلاف قتيل مصري و نحو ثلاثمائة فرنسي و عدد من الضباط و المهندسين و بعض العلماء⁽¹⁾.

و هكذا باعدت هذه الانتفاضة الثقة بين الأمة المصرية و الجيش الفرنسي بعد هذه الثورة قرر نابليون أن يقود حملة إلى الشام و لكن و لسوء حظه عاد من هناك خائباً منهزماً، و لإخماد هزيمته غادر مصر و ترك أمر الحملة لكليبر⁽²⁾⁽³⁾، حيث غادر الشرق و ترك البحر المتوسط في أيدي الإنجليز بعد تحطيمهم البحرية الفرنسية في أبي قير، و عرف بأمر اندلاع ثورة القاهرة الثانية ففر في عتمة الليل متستراً بظلامه الحالك فأبحر في 23 أوت 1799، و في 9 أكتوبر وصل إلى مدينة لزيجوس على الحدود الإيطالية الفرنسية حيث راح ليقدم تقرير عن الحملة الصليبية التي قادها⁽⁴⁾.

توقيع اتفاقية العريش: بعد رحيل نابليون انتشر الخوف و القلق وسط الجنود الموجودين في مصر⁽⁵⁾، و ساءت الأحوال في مصر و قرر الجنرال كليبر الدخول في مفاوضات مع الدولة العثمانية فكان له ذلك في اتفاقية العريش 24 جانفي 1800⁽⁶⁾ حيث كان هذان الطرفان في مواجهة عنيفة فأراد العثمانيون استرجاع القاهرة بالرغم من أن كليبر تفوق عليهم إلا أنه أراد عقد الصلح مع العثمانيين الذين استعدوا لإرسال جيش كبير بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا و تم توقيع هذه الاتفاقية بحضور الأدميرال الإنجليزي سيدني سميث⁽⁷⁾.

و قد نص الاتفاق على:

¹- عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ص 104.

alain rey. Dictionnaire universel-
1800-1753 قائد فرنسي شارك في الحملة الفرنسية على مصر و تولى قيادتها بعد نابليون،
² des noms propres(alphabetique et analogique). Avenue parmentir. Paris.1987

³- أحمد عوف، المرجع السابق، ص108.

⁴- زينب عبد العزيز، المرجع السابق، ص ص 37-38.

⁵- أحمد عوف، المرجع السابق، ص109.

⁶- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 84.

⁷- جوزيف ماري مواريه، المصدر السابق، ص 138.

أن ينسحب الفرنسيون من مصر مع عتادهم، و أن تقدم الدولة العثمانية السفن اللازمة لنقل الجيش على دفعات، و تضمنت الاتفاقية واحد و عشرون بنداً⁽¹⁾.
منها وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر من توقيع الاتفاقية⁽²⁾، و بينما كان كليبر و جنوده يستعدون للجلاء عن مصر إذ بمكتوب يصل إليه يتضمن نقض الاتفاق و أن يستسلموا كأسرى حرب مع التخلي عن كل ما لهم من مراكب و مؤن في الإسكندرية، فغضب كليبر فنادي بجنوده: "لستم تملكون في مصر إلا بقعة الأرض التي تقفون عليها فإن تقهرتم خطوة واحدة حق عليكم الفناء"⁽³⁾.

فقام كليبر بالهجوم على قوات تركية كانت في طريقها نحو القاهرة في 20 مارس 1800⁽⁴⁾ و سحق الجيش العثماني في معركة هليوبوليس (معركة عين شمس)، و في هذه الأثناء دخلت فلول من الجيش العثماني إلى القاهرة و انضمت للحركة الشعبية لتقوم ثورة القاهرة الثانية⁽⁵⁾.

ب- ثورة القاهرة الثانية 20 مارس 1800:

بعد فترة من الهدوء النسبي ظهرت انتفاضة جديدة أكثر قوة و قدم كل من يستطيع حمل السلاح لدعم الجيش⁽⁶⁾ و هذا بسبب السياسة الفرنسية الظالمة و قد استغل الثوار انشغال القوات الفرنسية بمواجهة العثمانيين و رفض الإنجليز اتفاقية العريش⁽⁷⁾.

1- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم و شوقي الجمل، المرجع السابق، ص 108.

2- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص 108.

3- جورج يانج، المرجع السابق، ص ص 51-52.

4- زاهية قدوره، المرجع السابق، ص 336.

5- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص 109.

6- محمد فيصل عبد المنعم، المرجع السابق، ص 147.

7- محمد محمود السروجي، المرجع السابق، ص 28.

فانتفض السكان بدأً من بولاق بقيادة الحاج مصطفى البشتلي، و قد لعب أعيان القاهرة من أمثال عمر مكرم (نقيب الأشراف) مع نقيب التجار دوراً⁽¹⁾.
كبيراً و حاول الثوار استخدام كل ما تحت أيديهم من سلاح لمهاجمة مواقع الفرنسيين⁽²⁾.

و كما أشرنا فقد كانت بولاق أول من هاج لتستمر ثورتهم ثلاثة و خمسون يوماً⁽³⁾ بعدما حصنوها بالمدافع و المتاريس و ألحقوا خسائر فادحة بجيش العدو العدو الذي لم يستطع دخول الحي لحصانته، و حمل الثوار أسلحتهم متجهين صوب مخازن الجيش الفرنسي على شاطئ النيل و عقب معركة خانقة استولوا عليه و اتجهوا لمهاجمة الفرنسيين في قلاعهم و في طريقهم قصفهم الجنود⁽⁴⁾ الفرنسيين في قلعة قنطرة الليمون، و لكن هذا لم يثبط عزيمتهم و مما زاد من غضبهم إلقاء القبض على الحاج مصطفى البشتلي فتاجه خمسين ألف من الثوار إلى مقر قيادة الأزبكية و أغلقوا أبواب العاصمة بالمتاريس لمنع المدد على الفرنسيين، كما أنشئوا مصنع للبارود و آخر لإصلاح المدافع و الأسلحة التي تقع من العدو لاستعمالها مرة ثانية⁽⁵⁾.

خلفت هزيمة العثمانيين في موقعة عين شمس قوة و عزيمة لكبير و إحباطا لصفوف الثورة، و قد تحالف كليبر مع مراد بك المرابط في الصعيد⁽⁶⁾، كما تمكن الجنرال رينيه من محاصرة الحدود الشرقية و الشمالية و مهاجمة الثوار في 4 أبريل حيث هدم المنازل و أحرقها فاقتحم الفرنسيون القاهرة⁽⁷⁾.

1- محمد فيصل عبد المنعم، المرجع السابق، ص 147.

2- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص 43.

3- مسعود الخوند، المرجع السابق، ص 122.

4- لوتسكي، المرجع السابق، ص 149.

5- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص 93.

6- محمد محمود السروجي، المرجع السابق، ص 30.

7- عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 262.

التي شهدت مناوشات لم تنتهي لمدة عشرة أيام حيث تمكنوا من السيطرة على الوضع، وفي 12 أبريل أمر الجنرال كليبر سكان القاهرة بالاستسلام و لكن الثوار رفضوا⁽¹⁾ كما رفض أهل بولاق الصلح لأن مصيرهم مرتبط بمصير أهل القاهرة⁽²⁾.

لتشهد القاهرة في اليوم الموالي قصف بالمدافع و القنابل على حي بولاق و تمكنوا من إخماد الثورة هناك و أصبحت المدينة خراباً و احترقت لمدة ثمانية أيام⁽³⁾، و قد فرضت على القاهرة غرامات قدرت ب اثني عشرة مليون من الفرنكات و تسليم ستة وعشرون ألف بندقية و عشرة آلاف سيف، و قد استمر كليبر في هذه الأعمال حتى قتل على يد سليمان الحلبي (طالب من الشام) في 14 جوان 1800 ليخلفه بعد ذلك الجنرال مينو⁽⁴⁾.

¹ - عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 262.

² - محمد فيصل عبد المنعم، المرجع السابق، ص 151.

³ - لوتسكي، المرجع السابق، ص 149

⁴ - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص 93.

❖ المبحث الثالث: معركة كانوب و نهاية الحملة.

أ - عهد الجنرال عبد الله مينو:

كان اسمه جاك فرنسوا⁽¹⁾ و هو خليفة كليبر و من أنصار بقاء الفرنسيين في مصر، فكان رافضاً لاتفاقية العريش و أراد الاستقرار في مصر خاصة بعد أن تزوج أحد المصريات و أشهر إسلامه و سمي نفسه عبد الله باشا مينو و بما أن الحملة كانت منقطعة عن فرنسا حاول أن يتأقلم مع الأوضاع العامة و أن يعيش من خيرات البلاد⁽²⁾ حيث قام بجملة من الأعمال الشنيعة منها إقفال الحوانيت و بيع محتوياتها بأبخس الأسعار و قام بهدم الدور و إزالة الأحياء من الوجود و هدم سور القاهرة من باب النصر إلى باب الحديد⁽³⁾ و ما زاد من الإساءات تحويل مسجد الأمير أزيك في الأزبكية إلى سوق و مسجد الرويعي إلى خمارة، و أصدر أمراً إلى كل أهالي القاهرة بدون استثناء بالوقوف تحيئاً للعمال الفرنسيين، و يكمن القول أن فشل حملة نابليون على مصر هو سوء القيادة العسكرية و الإدارية لمينو⁽⁴⁾.

التحالف الإنجليزي العثماني(معركة كانوب):

لقد أدرك الإنجليز عجز العثمانيين في مواجهة الفرنسيين(معركة عين شمس)، و قاموا بالتحالف من أجل طرد الفرنسيين من مصر حيث أرسلت إنجلترا حملات عسكرية من أجل هذا الغرض⁽⁵⁾.

¹- نقولا الترك، المصدر السابق، ص 32.

²- جلال يحيى، المرجع السابق، ص ص 387-388.

³- محمد فيصل عبد المنعم، المرجع السابق، ص 154.

⁴- مؤلف مجهول، الموسوعة العربية العالمية، ط2، ج23، المملكة العربية السعودية، 1990، ص 346.

⁵- مسعود الخوند، المرجع السابق، ج18، ص 222.

ب- معركة كانوب:

في هذه الفترة وصل نابليون إلى منصب قنصل أول و حاول إرسال العتاد و الجند لاستدراك الموقف، فتمكن من إرسال سفينتين حربيتين إلى الإسكندرية في فيفري 1801 تحتوي على ثلاثمائة جندي و كثير من الذخائر و المدافع لتقطع هذه الإمدادات من جديد⁽¹⁾ لأن الخطة العثمانية الإنجليزية تقوم على أن تزحف القوات البرية العثمانية إلى العريش و تأتي قوة بريطانية من السويس (طريق الهند) و تنزل إلى شواطئ الإسكندرية من أجل تطويق الجيش الفرنسي و منع الإمداد عنه⁽²⁾.

و ألقع الأسطول الإنجليزي في 22 جانفي 1801 بقيادة الجنرال كيث قائد القوات البحرية البريطانية في البحر المتوسط) و معه بعض السفن العثمانية و كتيبة من الجنود، ووصل إلى الإسكندرية في 1 مارس و بقيت في خليج أبي قير تنتظر وصول الأسطول البحري العثماني (ستة آلاف جندي) و جيش الصدر الأعظم (خمسة و عشرون ألف جندي) و قوة رابعة (ستة آلاف جندي) ترسلها الهند على أن يكون الهجوم من كل الجهات⁽³⁾.

و قد وقعت مناوشات أهمها معركة كانوب (21 مارس 1801)⁽⁴⁾ حيث خسر الفرنسيون ألف و خمسمائة قتيل و ألف جريح، و تمكن الجيشان الإنجليزي و العثماني من الزحف على القاهرة و استرجاع الكثير من المناطق⁽⁵⁾ و مما

1 - جلال يحي، المرجع السابق، ص ص 496-497.

2 - محمد فيصل عبد المنعم، المرجع السابق، ص 155.

3 - جلال يحي، المرجع السابق، ص 498.

4 - عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 265.

5 - لوتسكي، المرجع السابق، ص 155.

ساعد على انتصار هذا التحالف موقف الشعب المصري المعادي للفرنسيين و هذا ما أنزل اليأس في نفوسهم و قضى على حلمهم في إنشاء⁽¹⁾.
 إمبراطورية في الشرق فاتخذت القيادة قرار الجلاء⁽²⁾، لتدخل في مفاوضات مع هاتين القوتين و التي استمرت أربعة أيام انتهت بالاتفاق على إجلاء القوات الفرنسية البرية و البحرية الموجودة تحت قيادة الجنرال بليار عن القاهرة و المناطق المحيطة بها، و يكون هذا الجلاء بأسلحتهم و مدافعهم و ذخائرهم بطريق فرع رشيد إلى أبي قير في مدة لا تتجاوز خمسين يوماً من الموافقة على الاتفاقية .

و تعهد الجيشان العثماني و البريطاني بتقديم السفن اللازمة لنقل الجنود، وأن يرافقهم بعض كتائب الجيشين لتقديم المؤن اللازمة للجند، و نصت كذلك بأنه لا يجوز لأي مصري أن يرافق الجيش الفرنسي، و تم التوقيع على هذه الاتفاقية يوم 27 جوان 1801 و صادق عليها القائد العام العثماني و القائد العام البريطاني، و على هذا الأساس تم القضاء على الوجود الفرنسي في المنطقة⁽³⁾.
 و هكذا انتهت الحملة الفرنسية على مصر التي كانت تحمل منذ البداية بذور فنائها بسبب رفض المصريين لأي تواجد أجنبي في المنطقة و هذا ما رأيناه من خلال الثورات السابقة حيث لم يهدأ لهم بال منذ دخول الفرنسيين إلى أرضهم.

¹- جلال يحي، المرجع السابق، ص 511.

²- لوتسكي، المرجع السابق، ص 155.

³- جلال يحي، المرجع السابق، ص ص 511-512.